

التعليم والتربية

الارادة والعزم

اهتم الفرنسيين للكتاب الذي وضعه المسيو دومر (١) والي اخذ الصينية السابق ورئيس مجلس النواب في فرنسا وأخفوا به لما وجدوا فيه من ادوية ادوائهم الاجتماعية وطرق تربية النفس تربية تقيهم آفات العصر التي فجع منها العقلاء وحرار في معالجتها الحكمة . وهناك سبب آخر لتلقي القوم هذا الكتاب بايدي الاعتيار وهو غير ما يتبادر للذهن من بهرج الاقلاب التي تحف باسم مؤلفه . بل هو ما عرفوه من مبادئ نشأته ووسائل رفعت حتى كانت سيرته مثالا يحذى في الشهامة والاقدام واخلاقه خير وسيلة لاستكشاف اسرار النجاح . وقد تسابقت جرائدهم ومجلاتهم الى شرحه وتقريبه ونقلت حسب عاداتها فصولاً منه توضيحاً للدلالة عليه والتعريف به . فاثرت تعريب هذا العمل لشمول فائدته كل قارئ من اي قوم كان قبل في الارادة والعزم :

تعلم الارادة واعمل ما ينبغي . بذلك يمكن ان تلخص النص من المدينة التي تتخذ نواند للحياة . اذ الواجب وكن في الجملة رجل حق ابدأ . هذه هي الوصية السامية والفرصة الاديبة التي تسود في سيرة الانسان . ولا ينبغي لامثاها ان نرغب فيها فقط بل يجب ان نكون اهلاً للعمل بها اولى ارادة وقوة نحكم على انفسنا . هذا هو المهم وهذا هو الصعب . من اجل ذلك كان اول ما يجب على الفتي المتقدم لاحتمال اعباء الحياة وتبعاتها ان يتاهل لامتلاك قياد نفسه فتكون له السلطة المطلقة على هواه وخطرات قابله كما لها على جسمه واعمال جوارحه . فاذا كان المرء كذلك اوشك ان يكون امراً خبير وان يقبض في الغالب على زمام حياته وقياد سعاده

كيف السبيل الى تأمين سيطرة مستمرة مثل هذه على النفس وهي تظهر متعسرة باديء بدء وان تكن مهونها الخواولة حتى لقد تصير آلية ؟ ان لنا الصبر على الاتعالات الجاهلية وعلى الجواذب والقوات التي تحيط بالانسان ؟ كيف نغلب الميل الى البلادة والاستسلام الى الاميال الطبيعية التي يحلو الاسترسال معها ما لم نقدر عواقبها ؟ بل ذلك ينال بتعلم الارادة والتحرر عليها

نظم الفلاسفة الإرادة في سلك القوى الانسانية الاولى فلا نظير لها في الامة الا العقل الذي يضبط الفكر والواجب والحكم . ثم الاحساس الذي هو مبدأ الحواس والمواطف والشهوات . وان الذوق السليم يلتقي مع الفلسفة على وضع الارادة في الموضع الاول بين القوى البشرية وحفزت الانسان الكامل . فان الارادة القوية الثابتة تمكن من كل امر من حيث الشؤون المعنوية وكثير من الامور المادية

رجل الارادة هو وحده الخرف في الحقيقة فيورب احكامه وافعاله . بقدر افكاره وعواطفه بل وخياله ويخضع كل شيء لسلطة العقل . فهو يسير بمقتضى احكام عقله وياتر باوامر وجدانه مع قابليته للسلوك وفق قواعد الحياة التي دعت الحكمة الى اتخاذها . وفي الامكان ان يتغلب الانسان بالارادة الثابتة على الشهوات الفائرة متطرفة او مهلكة وان لا يدع سلطة على نفسه لغير المواطف الكريمة والخواطر النبيلة . ولا يصني الى المواطف الا اذا لم تقتض شيئاً ينافي الواجب . فلا بد اذاً من ارادة حديدية تكون المرء امرأ خير فاضلاً حقيقة . وكل من يملك تلك الارادة يستطيع الكمال مهما كان متواجبه ومعاينه وكيف كانت مشاربه ومذاهبه

ويحسن في المزاوات الحيوية والاعمال اليومية العديدة التي تتباعد اذ منها يتكون نسج وجودنا ان لا تضطر الى التهاور في الفكر عند كل امر لتبين في العمل به تكون الفائدة ام في الامتناع عنه . ولكن يجب ان يكون لنا قواعد ثابتة وان تكوني ادنى حركة من ارادتنا المنهية لتوغر الينا بالجزم

فاذا كنت تعرف قيمة العفة وكان من قاعدتك ان لا تفرط في الطعام وايقتت بمضرة السكر والدخان مثلاً ثم تعددت المثبرات وتوالت الدواعي الى ما يخالف ذلك فينبغي ان تنقيها الارادة بالعزم . وتمرن الارادة يومياً على مغالبة مثل هذه الصفات بحيث لا تافذ السلطان في غيرها من الامور المهمة

لا ينال الخير في الشؤون الخصوصية والعمومية الا بالارادة . نعم ليست هي المادة الوحيدة للتفاح الا انها شرط اولي لا اثر لغيره من الشروط بدونها . فان كنا نجد لهذه القوة الحيوية اعني الارادة تأثيراً محتملاً في كل امر لو نظر فيه بلى حدة فماذا نجد من تأثيرها في حياة بتوالي عملها فيها ؟ لا جرم ان الرجل الذي عرف ان يملك تلك القوة يصير اليه في الغالب تعيين حظها حتى لا يدع للمصادفات والظواهر السيئة الا ادنى مال من التأثير في حياته بحيث يكون هو الكاسب لمفلاحه والباقي لسعادته

وأما الرجل الذي لا ارادة له فلا يكون له من التأثير في حظه الا القليل ولو كان ذا عقل كبير فيظل العوبة يبد السدثان وامره الى الاتفاق . يجري في الحياة كما تجري تلك لا دقة لما فوق بحر هائج فهي تبحر من غير ما ادارة لتجاذبها الارباح وتندافعها البحاري الى ان تصير الى لجة تبتلعها

والجامدون من الرجال الذين فقدوا الارادة يتهم شواذ كأولي الارادة الثابتة المطبوعين على العزم والعمل . اما السواد الاعظم فمؤلف من ضعفاء الارادة وذوي العقول المترددة ولقد كان في امكان هؤلاء ان يكونوا احسن حالا مما هم عليه ثبات عزيمة وسداد رأي لو تعلموا الارادة . فالتردد والحيرة اللتان تفرسانهم هما مرضان يؤثرون بمرور الزمن الى شلل الارادة بالفعل . وقد تكون الحيرة والتردد في بعض الاحوال اشد النواقص خطراً وتؤديان الى الازايا اذا كان صاحبهما رئيساً ما لان العزم هو الصفة الاصلية للقواد والحكام والامراء هكذا تقتضي كلتا الحياتين العمومية والخصوصية ان يعرف المرء ان يتزم ويريد

فبالارادة التي يقودها العقل اذا ما عملت في الانسان بصورة مستمرة حتى تبلغ الغاية من نشاطها ويتم لها الكمال تصير عزيمة وذو العزم هو رجل ارادة وثبات واقدام وذلك خبر ما يوجد في المجتمع وانيد ما فيه واندر . الاوان كل ما يقال عن مآثر الارادة فهو حق وان شئت فقل ما يقال عن مآثر العزم . العزم يحتاجه الانسان ليكون فاضلاً يصنع الخير كما يحتاجه لانشاء حظه وسعادته . وبه يربي شخصيته الادبية والعقلية ويكون حياته جماعاً . وحكم العزم نافذ في هذين الامرين الحسي والمعنوي على السواء . فذو العزم ينفو عقله وهو ينجح ويتكامل ابداً

الطريقان المفتوحان امامنا طريق الخير وطريق الشر بينهما فرق اما طريق الشرفهله وهي على منحدر يستدرج فيكفي من الانسان ان يميل ميلاً حتى يتردى الى الحضيض . واما طريق الخير فهي اكثر عناء اذ يبني لسوكتها جهد مستمر وارادة ثابتة وبالجملة يبني لها عزم والعمل في اصلاح النفس وتكميلها عمل يومي . وشغل لا ينقضي من ماثرة المكارم والفضائل لاكتسابها والتنقيب عن النقائص والمعائب لمكافحتها وازالتها وعن المبادئ التي تستدعي الحذر والشهوات التي يجب ان تقهر . هنالك الخير خير يفعله الانسان لذاته وثم خير آخر لا يقل فائدة عن ذلك وهو ما يفعله الانسان مع غيره اديباً كان او مادياً بالنصيحة والاسوة الحسنة قولاً او فعلاً

صاحب العزم الثابت لا يتحول البتة عن هذا العمل النبيل والصنع الجميل يقوم به بامانة

ودقة مستضيئاً بمصباح العقل معتمداً على جزم الارادة . وانه يمكنه بل يجب عليه ان يفحص كل يوم ضميره واعماله فيعتبر اليوم الذي لم يتيسر له ان ينفع فيه احداً يوماً مفيداً ثم يفكر ويتدبر ويستمد من تفكيره حياة جديدة لمزمه وقوى غضة لحرب الحياة فان ذا الارادة القوية ليبلغ أكثر من غيره فيما لا يحصى عنه من الجهاد في سبيل الحياة اذ يكون تميزاً للعمل فيها بنفسه وينفع ذويه وفيما ينمي ويرفعه ويحقق امانيه . العزم ينيد في تحصيل الرفادية والسعادة ما لا يفيد العقل او الحظ فعلى كل من اراد النجاح في حياة تليق به ان ياتمس عزمًا عريقاً في الثبات وبعد نبتة اسباب النجاح تأتي زائدة

ارى في الناس عموماً والافرنسي خصوصاً - لاني اليه انظر - جرثومة الارادة الثابتة وارى فيه قوة ومثانة ظلت هائلة حتى جمدت وصارت كأن لم تكن لعدم العناية بها والالتفات الي تهديها . ارايت الرجل يسترخي عضله ويضعف جثته اذا هو اهمل الرياضة وترك العمل ؟ فكذلك الشأن في القوى الادبية

اذا كنا نهدب العقل في ايمان الشبية فتى نربي العزم ؟ لقد آن للشباب الذين اوجه اليهم هذا الخطاب ان يشرعوا في هذه التربية والتنمية الادبية بانفسهم ويجب ان يكون هذا اكبر همهم . وعليهم لكي يتعلموا الارادة ويحصلوا منها على نتيجة ان يعزموا عليها ويمارسوها من غير انقطاع ولا استراحة فيستعملونها في تكميل انفسهم وكل شأن من شؤون وجودهم اذ الغاية ان يجعل الانسان ذاته رجلاً ذا عزم يملك هواه ويقشدر على ادارة حياته وتدبير اعماله وان يكون هو المشي لسعادته وسعادة الآخرين من بني جنسه وان يشرف بلاده وينفعها بخدمته . فيا ايها الشاب الذي تقرأ كلامي ان كنت عازماً على بلوغ هذه الغاية فاذا ذكر الكلمة الاولى من هذا الفصل وهي تعلم الارادة . بقول مرثيه واضف اليها هذا البيت العربي

اذا لم تكن الحاجات من همة الفتى فليس بمن عنك عقد الزمانم

عبد المعين خلوصي

بيروت

